جيل أنيجار*

المثلث الأمومي

لطالما أدهشني جزم هوركهايمر وأدورنو الذي يتخلل مقولتهما: «إنّ معادة السامية نمطٌ متكرر تمّ التّدرب عليه جيدًا، وقالبٌ مصقول»: فلماذا اعتبرا معادة السامية نمطا؟ لكني وعندما بدأت بالاطلاع على الرياضيات، وعلى علم الهندسة بشكل خاص، بدأت أحظى بشيء من الوضوح حول هذا الخصوص، ولو ظلّ موضعا للتساؤل. وعلى أي حال، لم أحرز تقدما كبيرا في مضمار دراستي للرياضيات، إلا أنّني وجدت، مع ذلك، بأن بمقدور مجموعة بسيطة من الأشكال والفرضيات الهندسية أن تكون، وعلى نحو تجريبي، مفيدة لي في سعيي نحو صياغة تفسير مكثف لمعاداة السامية، وللبُنى التي كوّنتها عبر الزمن، وللطرق التي يمكن من خلالها، في الحاضر كما في الماضي، التنظير لها على يد هوركهايمر وأدورنو وغيرهما. فكما صاغاها هما نفسيهما ,,يتم في الوقت الحاضر إسناد هذه الأشكال النموذجية إلى مواقعها الرياضية المضبوطة ضمن إحداثيات القوة". لا أعمد فيما يلي إلى تقديم عرض تاريخي أو إثنوغرافي لمعاداة السامية. كما ولن أقوم ببسط عرض شامل لها، لكنني سأقدم عرضا يمنحننا أسسا لخريطة ما، وربما كذلك إحداثيات جديدة على مستوى هندسي بالإضافة إلى موجّهات الاحتمالية.

باقتفائي خطى فرويد، على نحو ما قام به هوركهايمر وأدورنو، فقد لاقيت كذلك أن تقاربا محددا، وإن كان شائكا، بين التحليل النفسي والهندسة (الهو،

* محاضر في أقسام الديانات والشرق الأوسط والدراسات الأفريقية في جامعة كولومبيا في نيويورك. أكاديمي بارز، مناصر لقضايا التحرر ولفلسطين والشعب الفلسطيني.

الأنا، الأنا العليا) يملي نفسه عليّ. وعلى هذا، سأسترشد فيما يلي بوينيكوت،[1] وبآخرين مثله ممن أسهبوا بشرح واف عن «المثلث الأوديبي». كما وسأبدأ بتدوين هذه الأشكال والفرضيات باعتبارها جزءًا من تجربة تفكيرية حول مسألة معاداة السامية، القديمة أو الجديدة، أو وعلى الأقل كما تمّ تعريفها من جديد مؤخرا.

اليهودي

لنبدأ بالنقطة (A):

A

بحسب رأي هوركهايمر وأدورنو، فإن معاداة السامية عبارة عن تلك النقطة المنفردة: إنها الذات «حين تنكمش لتصبح نقطة» أو «حصن الذات الأحادي الذي لا نوافذ له». تظل علاقة هذه النقطة بأي نقطة أخرى علاقة غائبة أو محجوبة عن الرؤية. ويمكننا القول أيضا بأنها علاقة خيالية وليست ذات أهمية إطلاقا: فكأنما معاداة السامية عبارة عن حدث واقع في قلب تلك النقطة فقط لا غير. وبالفعل، فقد عبّر جان بول سارتر عن هذه الفكرة بمنتهى الوضوح عندما أشار إلى أن اليهودي بمثابة (أو أنه قد يكون) اختراع يخلقه المعادي للاسامية. كما أننا نعثر في قلب هذه النقطة على ظاهرة مشينة نعرفها، ألا وهي ظاهرة «معاداة السامية دون وجود لليهود».[2] فإذا كان الأمر كذلك فإن المعادي للسامية عبارة عن نقطة: إنه نقطة لا أبعاد لها وليست لديه أي علاقة تربطه باليهودي الواقف خارج هذه النقطة. ولكن إذا أخذنا بعين الاعتبار بسط سارتر لتأملاته باتجاه اليهود «ذاتهم»، أي من النقطة/ ذات سارتر نحو النقطة/ ذات اليهودي، فيكون سارتر بذلك قد بسط النقطة لتصبح خطا.

والآن، من الواضح لنا أن الخط (AB) يختلف عن النقطة، فهو مرسوم نحو الخارج ويصل بين نقطتين:

A B

يبدو الخط (AB) بسيطا. لكنه وعلى الرغم من ذلك، مكوّن من العديد من النقاط. إن طبيعة العلاقة التي يؤسسها الخط (AB) مجردة، إلا أنها معقدة كذلك. فهو خط مستقيم ويؤسس متَّجها. إنه يربط ويعارض، وذلك كما هو الحال عندنا ههنا فيما يخص العلاقة بين المعادي للسامية وبين اليهودي، وذلك إنما، مهما كانت تلك العلاقة أحادية الجانب؛ أي علاقة تسري من جهة واحدة إلى الأخرى فقط. وبالطبع يتوافق هذا الأمر مع الفهم البديهي، أو وعلى الأقل، الفهم الأكثر انتشارًا، لمعاداة السامية، وهو ذلك الفهم الذي يحصر نفسه في شريحة معزولة كمثل هذه الشريحة المتمثلة بالخط (AB). ذلك بالضبط كما تفيد مقولة هوركهايمر وأدورنو: «فيما يمكن للمواطن الاعتراف بأن المعادي للسامية مخطئ، نلقاه إنّما يطالب باعتبار الضحية مذنبة أيضًا». من هذا المنظور، فإن معاداة السامية، وإلى جانبها أشكال أخرى من الأحكام المسبقة—هذا إذا ما ارتأينا أخذها هي الأخرى بعين الاعتبار—تكوّن معا خطوطا متوازيةً لا تتلاقى ولا تتقاطع أبدًا؛ أي، وعلى سبيل المثال، يظل الخط الذي يوصل بين اليهودي والمعادي للسامية موازيا للخط الواصل بين الأبيض والأسود (EF)، أو بين الرجل والمرأة (GH). وعلى هذا المنوال، نجدنا ههنا نتذكر كذلك المطالبة المتحمسة الداعية إلى إلغاء الوصلة التي كانت قائمة في التعبير «anti-semitism» ليصبح «antisemitism».[3] ومن هنا، وإذا أخذنا بعين الاعتبار كذلك علاقات المحاكاة بين الذوات—أي بين النقطة (A) والنقطة (B) على طرفي الخط (AB)—بالإضافة إلى "الإغواء في المحاكاة" بينهما، والإسقاطات فيما بينهما؛ أي إذا احتسبنا كذلك الحاجة (كما يعبر عنها هوركهايمر وأدورنو: «هذه الآلية بحاجة لليهود»)، يمكننا القول آنذاك بأن هوركهايمر وأدورنو قد قاما فعلا بتقطير طبيعة هذا الخط ليصلا إلى تلخيص جوهره من حيث كونه الخط الذي يربط بين «الخاصية» («Idiosynkrasie») المعادية للاسامية وبين اليهودي.

وبطبيعة الحال، يستمر هذا النموذج بالتوسّع: فإذا ما اعتبرنا، من جهة، بأن اليهودي هو طرف الخط (AB) الذي ينشطر إلى أشكال مختلفة (إلى مصرفي ومثقف مثلا)، أو إذا اعتبرنا بأن الطرف الآخر؛ أي طرف المعادي للاسامية، هو الطرف الذي ينشطر (إلى فاشي وليبرالي مثلا)، علينا عندها الانتقال من نموذج

الخـط (AB) إلى نمـوذج آخـر حاسـم في علـم الهندسـة، ألا وهـو المثلـث:

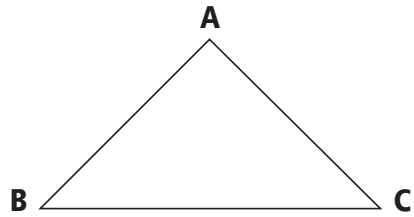

أمـا، وفيمـا يـلي، فعلينـا النظـر إلى المثلـث (ABC) بصفتـه شـكلا ديناميكيـا متحـركا، بحيـث تكـون التمثيلات عـلى رؤوس المثلـث قابلـة للتبـدل، وذلـك بالضبـط مثـل كـون «الضحايـا قابلـة للتبـدّل» (هوركهايمـر وأدورنـو). لقـد اثبتـت حنّـة أرنـدت في دراسـتها لمعـاداة السـامية بـأن اليهـودي «ذاتـه» قـد كان بالفعـل شـخصية منشـطرة، وهـو الأمـر الـذي مكّـن اليهـود بالتـالي مـن تبـوّء (متزامـن أو متتابـع) لمواقـع مختلفـة ومتغـيرة عـلى المثلـث: فهنـاك انشـطار اليهـودي إلى اليهـودي المنبـوذ (pariah) مـن جهـة وإلى اليهـودي المحـدث النعمـة (parvenu) مـن جهـة أخـرى. كمـا وينشـطر اليهـودي إلى يهـودي البـلاط الفـرد («اليهـودي الاسـتثنائي») وإلى الكيـان الجمعـي لليهـود، «الجماهـير اليهوديـة» (الفقـيرة، الشرقيـة، إلـخ)، في المقابـل. بالنظـر إلى ذلـك، وعـلى الرغـم مـن أن أرنـدت لـم تـشر في دراسـتها إلى فرويـد، فإنهـا قـد اسـتوعبت عـلى مـا يبـدو مكانـة المثلـث بصفتـه نموذجـا يصـوغ عـلى نحـو ديناميكـي العلاقـة بـين الأفـراد (مهمـا كانـت تنميطيـة) وبـين مجموعـات كاملـة كذلـك، أو العلاقـة بـين «أفـراد مـن أصـول يهوديـة» وبـين «اليهـود كشـعب». وبهـذه الطريقـة، وسـواء أكانـت أرنـدت قـد تعمـدت الأمـر أم لا، فيمكننـا القـول إنهـا تناولـت ترجمـة فرويـد للمثلـث الأوديبـي (الأب، الأم، الطفـل) لتعيـد كتابـة هـذه الترجمـة عـلى شـكل نمـط أكثـر تعقيـدًا، ألا وهـو مؤسسـة (العنـف) التابعـة للجماعـة (الأب، النسـاء، الأبنـاء أو الإخـوة).

بوصولنـا إلى هـذه النقطـة، أصبـح مـن الواضـح أمامنـا بأننـا، ومـن خـلال هـذه التمثيـلات، نسـتطيع اسـتخدام المثلـث أكثـر وأكثـر مـن أجـل تصـوّر علاقـات «داخليـة» أو أخـرى «خارجيـة»، وإن كان ذلـك ربمـا عـلى نحـو تناقـضي إذا مـا نظرنـا إلى موضوعنـا قيـد المعالجـة. في الحالـة الأولى؛ أي بالنظـر عـلى العلاقـات «الداخليـة»، نلقـى أن المقاطـع تصـل بـين كيانـين (فـردي أو جماعـي) ينتميـان إلى المجموعـة «ذاتهـا». فلـدى أرنـدت، عـلى سـبيل المثـال، نجـد أن هنـاك نوعـان مختلفـان مـن اليهـود يكوّنـان «اليهـودي»، وهمـا اليهـود المنبـوذون واليهـود محدثـو النعمـة. يشـير كل واحـد مـن هذيـن النوعـين إلى جزئـين من «اليهـودي»، واللذيـن يمكـن اعتبارهمـا، عـلى نحـو بيانـي أكثـر، «اليهـودي الجيـد» و«اليهـودي السـيء». لنعيـد مـن جديـد: يمكننـا أيضـا أن نعتـبر المثلـث بدايـةً خطـا يربـط بـين معـادي السـامية واليهـودي، ومـن ثـم ينقسـم هـذا الخـط ليصبـح ضلعـي مثلـث جاهـز للعمـل. وبالإضافـة إلى ذلـك، وإذا مـا كان المثلـث الـذي تخطـه لنـا أرنـدت مثلثـا «داخليًـا» بالفعـل، فإننـا نجدهـا تمنحنـا أرضيـة للتفكـير في الإمكانيـة الأخـرى؛ أي في النسـخة «الخارجيـة» للمثلـث، وهـي النسـخة، التـي تحافـظ عـلى شـكل المثلـث، ولكنهـا تعيـد صياغـة المثلـث الأول داخـل فضـاء أوسـع وأكثـر ديناميكيـة (معـاداة السـامية، الإمبرياليـة، الشـمولية).

إزاء مثـل هـذه الخطـوط المقطعـة، نعثـر عـلى دافـع لإعـادة النظـر في الخـلاف المعيـب بـين لاس كاسـاس وسـيبولفيدا، والـذي تـم بحسـبه تقسـيم «الهنـود» بـين البـشر وغير-البـشر (تقسـيم داخـلي). كمـا ويمكننـا أن نسـتحضر في أذهاننـا التعامـل التفاضـلي مـع الأميركيـين الأصليـين والأفارقـة: الإبـادة أو الاسـتعباد. أمـا وفي حالـة تحـرّر اليهـود، فنتذكـر هنـا أن الخيارين قـد توزعـا بـين إمكانيتـي الاسـتيعاب أو الطـرد—أو الإبـادة (وهـو المقطـع الـذي يفتتـح بـه هوركهايمـر وأدورنـو). كمـا ويمكننـا أيضـا أن نسـتذكر الهنـدوس والمسـلمين، وآخريـن غيرهـم كثيريـن. يمكننـا إذا أن نعـرض ههنـا واحـدة مـن هـذه النسـخ للمثلـث:

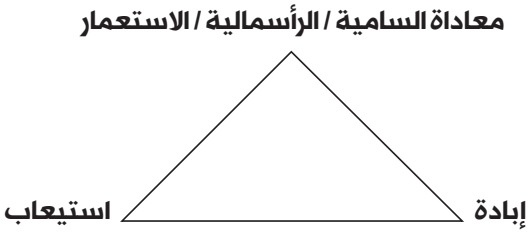

بوصولنـا إلى هـذه النقطـة، لا يسـعنا إلا أن نخلـص إلى اسـتنتاج مفـاده وجـوب تمثيـل معـاداة السـامية، وبنـاءً عـلى ذلـك، كذلـك تمثيـل أشـكال أخـرى مـن الظلـم والعنـف، دومـا ودائمـا مسـتخدمين هيئـة مثلـث، فهنـاك دائمًـا مقطوعـة، أو ضلـع، ثالثـة يمكننـا إخراجهـا إلى النور. لقـد اكتشـفت خـلال أبحاثـي بـأن المثلـث يؤسـس بـكل

الأحـوال علاقـات والتـي مـن الجديـر بنـا أن نصفهـا عـلى أنهـا «خارجيـة». فـإذا مـا اعتبرنـا بـأن النقطـة A تمثّـل المعـادي للسـامية وأن النقطـة B تمثـل اليهـودي، فقـد أقمت الدليـل بأنـه يتوجـب علينـا اسـتحضار الـرأس الثالثـة للمثلـث، وإن كانـت مسـتترة، وهـي الـرأس التـي أطلقـت عليهـا اسـم «العربـي». لكـن علينـا أن نتذكـر أيضـا بـأن رؤوس المثلـث ديناميكيـة أيضـا، وبـأن أسـماءها ديناميكيـة كذلـك. وهكـذا بسـط تاريـخ العـدو الـذي تتبعتـه خـلال دراسـتي لـه مسـمّيات مختلفـة عـبر التاريـخ: لقـد تغـيّرت المسـمّيات مـن الهاجريـين [نسـبة إلى هاجـر] إلى المـور، ومـن الـترك إلى المحمديـين، أو العـرب أو المسـلمين. عـلى تعـدد هـذه المسـمّيات التـي تبـدو جليـة للعيـان في هـذه القائمة—هـذا وبالطبـع بالإضافـة إلى انعـدام قدرتنـا عـلى اختزالهـا ولـو جزئيـا—أن يدفعنـا نحـو تفحّـص دقيـق أكثـر للتسـمّيات المألوفـة لباقـي رؤوس المثلـث التـي ألفناها واعتدنـا عليهـا، ووضـع شـأن دوامهـا محـط السـؤال. وفي جميـع الأحـوال، يبقـى الأمـر الأهـم بـأن المثلـث عينـه هـو مـا يشـكّل البنيـة التـي لا فـكاك منهـا والتـي تعمـل فيهـا مقاطـع الخطـوط؛ أي أضـلاع المثلـث، في تـرادف مركّـب. وفي دراسـتي لتاريـخ العـدو نلقـى المثلـث التـالي: يقـوم الضلـع AB عـلى تمثيـل معـاداة السـامية ويقـوم الضلـع AC عـلى تمثيـل الاسـتشراق والإسـلاموفوبيا، أمـا الضلـع BC فيقـوم عـلى تمثيـل اليهـودي العربـي. أو، وكمـا حاولت صياغـة هـذا الشـأن مـن قبـل: فإننـا لا نلقـى ولـو وثيقـة مسـيحية واحـدة وحيـدة عـن اليهـود، والتـي ليسـت كذلـك وثيقـة عـن العـرب (أتـراك، مسـلمون، إلـخ). ولقـد حاولـت تمثيـل هـذه المسـألة عـن طريـق النسـخة الشكسـبيرية القويـة لهـذا المثلـث:

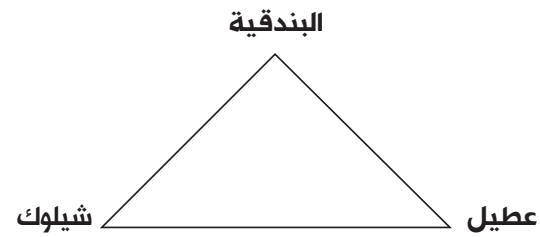

كمـا وبإمكاننـا عـرض نسـخة راهنـة لهـذا المثلـث، بحيـث يعـبّر الضلـع AB عـن اليهودي–المسـيحي والضلـع AC عـن «الإسـلاموفوبيا»

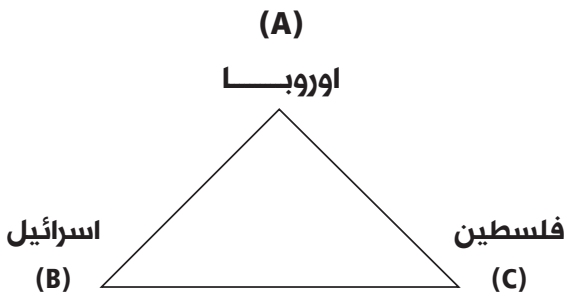

لنعيـد القـول مـن جديـد، بأنـه وبنفـس قـدرة الزاويـة الواحـدة عـلى تحديـد طبيعـة (وحسـاب) الزوايـا الأخـرى، فـإن الأضـلاع تقـوم هـي كذلـك بتحديـد بعضهـا البعـض. وعـلى هـذا الشـكل، يمنحنـا المثلـث طريقـة صوريـة وبيانيـة، وإن كانـت بسـيطة ومبسِّـطة، تجعلنـا قادريـن عـلى القيـام بـ «حسـاب» ديناميكـي لموضوعـات الظلـم والعنـف المختلفـة، وذلـك في خضـم علاقاتهـا البنيويـة المعقـدة. كمـا ويمكننـا أن نؤكـد مـن جديـد بأننـا نلاحـظ هنـا بـروز بعـض الأداءات لمـا أمكننـا تسـميته العلاقـات الخارجيـة (اليهـودي، المسـلم)، هـذا فيمـا تـبرز للعيـان كذلـك أداءات أخـرى داخليـة (يهـودي جيـد، يهـودي سيء). هكـذا يمكننـا تسـمية أحـد الأضـلاع «الديـن» وتسـمية ضلـع آخـر «العـرق»، أو يمكننـا تسـميتهما «السياسـة» («الديمقراطيـة الوحيـدة في الـشرق الأوسـط») و «الديـن» («التعصـب»). مـن المؤكـد بـأن هـذا التمثيـل يعـرض عـلى نحـو جيـد مـا كنـت قـد اقترحـت تسـميته مـن قبـل «جثتـي العـدو». وكمـا تقدمـت واقترحـت مسـبقا، يمكننـا بالفعـل التفكـير في العديـد مـن أوجـه التشـابه والتقاطعـات، فيمـا يتعلـق بقضايـا الظلـم والعنـف، سـواء أكانـت دينيـة أم عرقيـة، وبالإضافـة إلى ذلـك القضايـا الجنسـية أو الاسـتعمارية، البـشري أو الحيوانـي، السـليم أو المعـاق. كمـا وعلينـا أن نتذكـر بـأن للسـلطة قـدرة كبـيرة في التأثـير عـلى توالـد وتزايـد وتسـليح الانشـطارات فيمـا بـين النسـخ «الجيـدة» و«السـيئة»: المتوحـش والنبيـل، العـذراء والعاهـرة، زنجـي البيـت وزنجـي الحقـل، ومـا إلى ذلـك. بالنظـر إلى ذلـك، يمكننـا القـول بـأن حوريـة بوثلجة قـد برعـت فعـلا في كتابهـا (الصـادر باللغـة الفرنسـية) «البيـض واليهـود ونحـن»، هـذا في الحـين الـذي يشـير فيـه أمنـون-راز كراكوتسـكين، وفي سـياق متاخـم وحاذيـا حـذو كارلـو جينزبـرج، إلى «التناقـض المـزدوج للمسـيحي تجـاه اليهـود».

هنـاك بالطبـع أشـكال هندسـية أكثـر تعقيـدًا مـن المثلـث. لكـن المثلـث، والـذي نلقـاه كمـا نعلـم متوافـرا وبكثـرة، فيشـكّل مدخـلا مفيـدا نحـو فهـم معـاداة السـامية. وسـأحاول فيمـا يـلي تحـرّي هـذه الفكـرة وذلـك عـن طريـق تحويـل المنظـور الـذي اعتمدتـه حتـى الآن في اتجـاه مختلـف قليـلاً.

الأم

حانـت الفرصـة الآن لأن أذكـر أن المصـدر الـذي منحنـي الإلهـام الأولي لعـرض الرسـومات التـي بسـطتها أمامكـم في القسـم السـابق مـن هـذا المقـال هـو بحـث لروبـرت مايسـتر.[4] يقـدم لنـا مايسـتر في خضـم تناولـه الفـذ لمعـاداة السـامية ولتاريخهـا، اقتراحـا مدهشـا يدعونـا إلى إعـادة تسـمية رؤوس المثلـث الناظـم الـذي يعنـى بدراسـته إلى: الجانـي، الضحيـة، المسـتفيد. يقـدم لنـا مايسـتر في بحثـه قـراءة لميلانـي كلايـن[5] ولدونالـد وينيكوت—الـذي يقـدم لنـا هـو الآخـر نسـخة مختلفـة عـن المثلـث: نسـخة قـد تذكرنـا بأرنـدت، ولكنهـا تحمـل في طياتهـا ليّـة مثـيرة. ففـي هـذه النسـخة أيضًـا، نلقـى الموضـوع «ذاتـه» متربعـا عـلى موقعـين متمايزيـن، أو زاويتـين، في قاعـدة المثلـث: يهـودي جيـد ويهـودي سيء. مـع ذلـك، ولكـي نفهـم، وبالشـكل السـليم، تنـاول مايسـتر لوينيكوت—ولكـي نفهـم عـلى النحـو ذاتـه وبالإضافـة إلى ذلـك إعـادة صياغـة هـذا الأخـير لمثلـث أوديب—فعلينـا أن نلتفـت بانتباهنـا إلى شـكل أكثـر حركيّـة وأن نقـوم بقلـب المثلـث. وبتعبـير أدق، علينـا أن نضـع انشـطار الضحيـة إلى يهـودي جيـد ويهـودي سـيئ جانبـا وأن نقـوم بـدلا عـن ذلـك بتحديـد موقـع الضحيـة عنـد قمـة المثلـث، وأن نقـوم في الآن ذاتـه بإعـادة النظـر في موقـع المعـادي للسـامية وتأمّلـه فيمـا هـو نفسـه في حالـة انشـطار. بعبـارة أخـرى، يبـدو أن الـدرس الـذي يريـد منـا مايسـتر أن نتعلمـه يتطلـب منـا أن نضيـف سـارتر مـن خـلال إضافـة مقطـع، أو ضلـع، إلى الخـط الواصـل بـين المعـادي للسـامية واليهـودي لنحصـل بذلـك عـلى المثلـث التـالي:

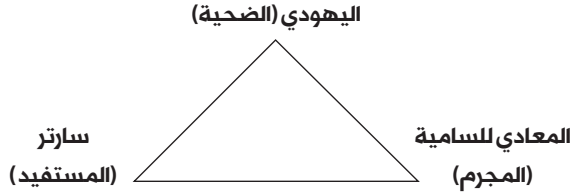

مـن الواضـح لنـا تمامـا بـأن مـا نتعلمـه مـن مايسـتر عـن انشـطار المعـادي للسـامية عنـد زاويتـي قاعـدة هـذا المثلـث مرتبـط بـكل مـا يخـص عـين الازدواجيـة مـا بـين الجانـي والمسـتفيد وكذلـك التواطـؤ الحاصـل فيمـا بينهمـا؛ أي أنـه، ومـن ناحيـة عمليـة، مرتبـط بمـا يخـص الربـح (الاقتصـادي والسـياسي، والرمـزي وغـيره) الـذي يحصـل عليـه المسـتفيد نتيجـة ارتباطـه (السـابق) بالجانـي. ويحصـل هـذا الأمـر وبشـكل حاسـم بنفـس القـدر الـذي يكـون فيـه الطفـل في مثلـث وينيكـوت الجانـي والمسـتفيد في الآن ذاتـه، ذلـك لإن الطفـل يتغـذى عـلى الأم ويدمرهـا كذلـك. أو لنقـل بعبـارة أخـرى، بـأن الطفـل يسـتهلك الأم. عـلى ذلـك تبـدو لنـا الأم منشـطرة بشـكل فعـلي، ولكنهـا وعـلى نحـو أكثـر أهميـة، الغـرض الـذي يبغيـه موضـوع منشـطر: تتربـع الأم عنـد رأس المثلـث ونلقـى الطفـل عنـد زاويتـي قاعـدة المثلـث منشـطرا إلى الجانـي والمسـتفيد. وهـذه هـي امكانيـة الانشـطار التـي تقـضي بوجـود «معاديـن للسـامية جيديـن» (هـم الأنصـار غـير المشروطـين لإسرائيـل) و«معاديـن للسـامية سـيئين» (هـم «مناهضـو الصهيونيـة») والتـي وجدنـا أنفسـنا مؤخـرًا مطالبـين بأخذهـا بعـين الاعتبـار. وعـلى نحـو مـا تأتـي عـلى ذكـره ميلانـي كلايـن بـأن هنـاك «ثـدي جيـد» و«ثـدي سيء»، وعـلى نحـو يفيـد بـه وينيكـوت عـن «الأم الجيـدة بمـا يكفـي»،[6] فإننـا نقـف هنـا أمـام فرصـة لإعـادة تحديـد مركـز السـرد مـن جديـد، ولإعـادة رسـم المثلـث، مـن خـلال إضافـة «طفـل جيـد» و«طفـل سيء» إلى قاعدتـه:

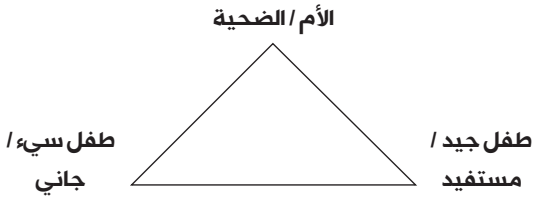

هـذا هـو مثلـث الأمومـة، الـذي أعمـد إلى عرضـه فيمـا تبقّـى مـن هـذا المقـال، ذلـك باعتبـاره المثلـث الـذي يغـيّر كل مـا درجنـا عـلى معرفتـه عـن طريـق الحكايـات التـي كنـا نرويهـا لأنفسـنا، والمثلثـات التـي يمكننـا تصوّرهـا.

لنتذكـر بـأن الطـرح الـذي يقدمـه لنـا مايسـتر مرتبـط بشـكل خالـص بمسـألة إمكانيـة تبـدّل الضحايـا، والتـي كنـت قـد أشرت إليهـا مسـبقًا. لكـن هـذا الطـرح يحثنـا، وبشـكل أكثـر راديكاليـة، عـلى إعـادة النظـر في

رؤوس المثلث؛ أي ومن ناحية فعلية، يحثنا على إعادة النظر في طبيعة المثلث وفقا لنمط محدد للغاية، هو النمط الذي نلقاه إذا ما استدعينا من جديد مفهوم هوركهايمر وأدورنو له من حيث إصرارهما على عِظم شأن «الشخوص الأبوية» ودوامها. وفي المقابل، فإن ما يطالبنا به مايستر، مقتفيا خطى وينيكوت، عبارة عن حرف تفكيرنا نحو الأم، نحو شخص الأم، وذلك بصفة كونها هي، دون غيرها، الضحية النموذجية والبرادغمايتة. فمع الأم، ومن خلالها، نتعرّف إلى رؤوس المثلث الأخرى. كما ونتعرف معها ومن خلالها إلى وكالة الضحية لدى انبثاقها من الموقع الذي تشغله على المثلث؛ أي رأس المثلث، وذلك في إطار علاقتها مع الأضلاع المختلفة. كما وعلينا أن نساجل المعاني النابعة عن هذا الأمر وغيرها من الثنائيات بالإضافة إلى إسقاطاتها: أجل إنّه درس في الهندسة الإقليدية، إلا أن تبعاته جسيمة.

المعادي للسامية منشطر: مثله كمثل الطفل. فهو، كما يجدر بنا أن نردد من بعد دريدا «في حالة حرب مع نفسه».

لكن أين يكمن التجديد هنا من بعد ما تعلمناه من النسويات الماركسيات؟ الأم هي موضوع الاستغلال الأصلي: إنها موقع الاستخراج والتراكم الأبدي. إن ما يضيفه وينيكوت على أي حال فعبارة عن ضلع حاسم آخر، ضلع يكتمل به المثلث، وهو كونها كذلك هدف التدمير. كما أنّ وينيكوت يوضّح بالإضافة إلى ذلك بأن الانشطار الأكثر أهمية هو ذلك الانشطار الذي يكمن في الطفل، في الموضوع البراديغماتي؛ أي الطفل من حيث كونه مستغِلا ومدمِّرا في آن واحد. لهذا السبب، ومن وجهة نظر مايستر، فإن الثنائي الأساسي هو ثنائي «الجاني والمستفيد» بدلا عن كونه ثنائي «الضحية والجاني»: وهذا هو الطفل؛ أي الموضوع الذي يدمر ما يتغذّى عليه، أو الطفل الذي يستهلك الأم. لهذا فإن الطبيعة المنقسمة للضحية، الضحية المتربعة على رأس المثلث، وسيرورتها المزدوجة (أم جيدة، أم سيئة؛ يهودي جيد، يهودي سيء، إلخ.) مرتبطة ارتباطًا بنيويا ومتسقا مع انشطار الموضوع «نفسه»، وهو الانشطار الذي كنت وفي بحث سابق قد حاولت، مقتفيا فرويد، تلخيصه وعرضه في هيئة «القاتل البريء».

حان الوقت للدفع بمناقشتي نحو استنتاجاتها من خلال تذكير القراء بأنه من السهل جدا أن يغيب المثلث عن منظورنا لنجد أنفسنا لا نرى إلا خطا واصلا بين نقطتين. وهذا ما حدث من قبل بالفعل. أو لنقل وبتعبير أدق، أننا كنّا من قبل قد نحونا طويلا باتجاه استبدال ما أسميه «مثلث الأمومة» بنسخة كنا قد ألفناها ودرجنا عليها، وهي النسخة التي يتربع بحسبها أوديب، أو الطفل، بدلا عن الأم، على قمة المثلث. أجل يمكننا القول بأنه مثلث، إلا أنه مثلث قابل للاختزال بسهولة إلى خط يربط الأب بالابن، ومعادي السامية باليهودي. وبحسب هذه النسخة المألوفة، فإن الضحية المطلقة—الموضوع كضحية—هي، وكما كانت منذ أمد، الطفل، الذي قد يكون أضحية بريئة، أو أنه قد يكون الضحية والجاني معا—القتل والسِفاح. أو وعدا عن ذلك، أن يكون الطفل يسوع الذي مات من أجل خطايانا. وفي بعض الأحيان، تكون الأخت هي الضحية.

كذلك الأمر عندما نقُص حكاية معاداة السامية بحسب هذا الفهم القديم للمثلث، إذ نجدنا عندها قد فقدنا القدرة على رؤية المثلث—وهذا على الرغم من أن الثالوث على مقربة منا. فهنا أيضًا—وربما يصح هذا في الوقت الحاضر أكثر من أي وقت مضى—يبدو أننا قد عدنا إلى الخط. ومع العودة إلى الخط تبدو لنا الحكاية كما لو كانت حكاية شقيقين: حكاية تنافس ومحاكاة. وبحسبها يظهر اليهود والعرب كأعداء أزليين، وتظل بحسبها الضحية، على رأس المثلث، كما كانت دائما وأبدا: طفلا. ومن المدهش أننا بذلك لا نكف عن تضييع الأم، وذلك على الرغم من أننا ندينها بما فيه الكفاية عندما نفرّق بسلاسة بين الأم الجيدة والسيئة. ومع هذا فإننا نعلم الآن جيدا بأن تاريخ معاداة السامية قد خضع لتغيير كبير وأنه يتعيّن علينا ربما القيام بوصفه من جديد كقصة تأرجح بين أمهات: بين سارة وهاجر، أو بين ماري وهاجر، أو بين أم جيدة وأم سيئة. وإذا لم نقم بذلك، فسنظل أسرى المثلث القديم والحكاية القديمة، وستظل سيناجوغ عمياء وإكلسيا منتصرة،[٧] كما وسيظل اليهودي سيئا والمسلم أسوء. ودعونا لا ننسى «الأمهات اليهوديات»—النقل، القوالب النمطية، النكات.

يتلخص ما أريد أن أقوله ههنا بأننا قد كنا اقتدنا نحو الاعتقاد بأن اليهود قد كانوا "الأخ الأكبر" في

علاقتهم بالمسيحيين. ولكن، وبعد تبديلنا هذا للمثلث، فقد أصبح من المؤكد الآن بأن للعلاقة بين اليهودي والمسيحي—هذا إذا ما توجّب تعريفها مؤقتًا (أكان ذلك صحيحا أم خطأ) —وظيفة مغايرة ومنطقا يختلف عن منطق وظيفة "الأخوة" وحصريتها. ففيما أدّعي ههنا، أن معاداة السامية ترتبط في المقام الأول بمثلث الأمومة، وبحسب مثلث الأمومة هذا لا يمكن اعتبار الطفل—معادي السامية—براديغما الضحية المتربعة على رأس المثلث، بل يجب اعتبار الطفل الجاني والمستفيد الذي يحتل الزاويتين على قاعدة المثلث. إن ما يتوجب علينا فهمه، كما أوضح مايستر، هو أن الأم هي الضحية النموذجية والبرادغمايتة. ولهذا بدأت مريم بالظهور لدى الغرب المسيحي، لدى ظهور الإسلام (هاجر)، فظهور الأم الجيدة مرتبط بظهور الأم السيئة، وعندها أصبح اليهودي الشخصية (المرهونة) للأم السيئة. إن اليهود—الذين حفظوا أنفسهم بعيدين عن الجسد اليهودي الذي تغذى عليه المسيحيون (أي جسد يسوع كأم، أو اليهودي كأم) وظلوا يقاومونه—منشطرون إلى أم جيدة، أو أم عذراء، وأم سيئة. لكن، وبحسب مثلث الأمومة، فإن هذا الانشطار؛ أي انشطار الضحية-الأم-اليهودي، ليس الانشطار الأساسي بل يتفرع منه: فالأم تتربع على رأس المثلث، أما المنشطر، لنعيد من جديد، فهو المعادي للسامية، هو الطفل الذي يتغذى ويدمّر، الطفل الذي يقتل، وببراءة، الأم التي يتكل عليها.

اسمحوا لي أن أختتم بالعودة إلى إمكانية «تبدّل الضحايا». فأنا لم أدفع بمناقشة عن تبديلات سهلة، هذا ناهيك عن المنافسة. لقد كان ما طرحته هنا بالأحرى إقرارا يعترف بمثلث الأمومة. وتبدّل الضحايا يخص فلسطين التي كانت وفلسطين اليوم: «على هذه الأرض ما يستحق الحياة، على هذه الأرض، سيدة الأرض، أم البدايات أم النهايات. كانت تسمى فلسطين. صارت تسمى فلسطين.» هذا هو الدرس الذي علّمنا إياه محمود درويش: درس في تراث المضطهدين. وهذه هي المعرفة، أو الموقف (الهندسي)، التي تنبّه إليها جيمس بالدوين بذكائه وفطنته طالبا منّا تبنيها: «يعرف الزنوج عن الأميركيين البيض ما يعرفه الآباء—أو وبكل الأحوال، الأمهات—عن أطفالهم.» ومن هنا ليست البقية إلا مجرد تعقيب وحسب.

المصادر

- Anidjar, Gil, *The Jew, the Arab: A History of the Enemy* (Stanford: Stanford University Press, 2003)
- Anidjar, Gil, *Blood: A Critique of Christianity* (New York: Columbia University Press, 2014)
- Arendt, Hannah, *The Origins of Totalitarianism* (New York: Meridian Books, 1958)
- Baldwin, James, *The Fire Next Time* (New York: Vintage, 1993)
- Bouteldja, Houria, *Whites, Jews, and Us: Toward a Politics of Revolutionary Love*, trans. R. Valinsky (South Pasadena: Semiotex(e), 2017)
- Bynum, Caroline Walker, *Jesus as Mother: Studies in the Spirituality of the Middle Ages* (Berkeley: University of California Press, 1982)
- Cohen, G. Daniel, "Good Jews. Philosemitism in Post-Holocaust Europe," *S:I.M.O.N. – Shoah: Intervention. Methods. Documentation 7* (2020) 1, 118127-.
- Horkheimer, Max and Adorno, Theodor W., *Dialectics of Enlightenment: Philosophical Fragments*, (trans. E. Jephcott), (Stanford: Stanford University Press, 2002).
- Meister, Robert, *After Evil: A Politics of Human Rights* (New York: Columbia University Press, 2010)
- Raz-Krakotzkin, Amnon, "Secularism, the Christian Ambivalence Toward the Jews, and the Notion of Exile" in Joskowicz, Ari and Katz, Ethan B.(eds.), *Secularism in Question : Jews and Judaism in Modern Times*, (Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 2015), 276298-.
- Sartre, Jean-Paul, *Anti-Semite and Jew*, trans. G. J. Becker (New York: Schocken, 1948)

الهوامش

١ دونالد وينيكوت (Donald Winnicott) (١٨٩٦-١٩٧١)، طبيب أطفال ومحلل نفسي. اشتهر بصياغته لمفهوم «البيئة الحاضنة» مدعيًا بأن أسس صحة الطفل النفسية تتوقف على الأم العادية من خلال الرعاية والحنان العاديين الذين تمنحهما لطفلها. ومن هنا يحضر مفهوم «الأم الجيدة بما يكفي» («Good enough mother») الذي يشير إلى الأم العادية الدائبة على أمومتها مستعينة بغريزتها الطبيعية كأم—على العكس من مفهوم الأم المثالية—والذي يلعب في هذا المقال دورا مركزيا بالنظر إلى كون «الأم الجيدة بما يكفي» العادية الطبيعية تقف بين الأم الجيدة والأم السيئة وبالتالي تؤسس لإمكانية انشطار الأم. هذه الملاحظة وما يلحقها أدناه للمترجم.

٢ كما هو الحال اليوم في بولندا مثلا حيث مؤشر معادة السامية عال على الرغم من عدم وجود أقلية يهودية.

٣ تهدف هذه إلى ربط شطري التعبير وإلغاء الفصل اللغوي بينهما منعا لفلتان أحد الشطرين من المعنى من أجل حصر التعبير داخل معناه الأصلي الذي يخص اليهود بالسامية والإبقاء على التعبير مشيرا إلى معادة اليهود دون غيرهم من الساميين.

٤ روبرت مايستر (Robert Meister) أستاذ الفكر الاجتماعي والسياسي في جامعة كاليفورنيا-سانتا كروز. يعرض في كتابه (المقتبس هنا) After Evil: A Politics of Human Rights نقدا للخطاب الإنساني العالمي بعد سقوط النظام الشيوعي في ١٩٨٩. يتلخص ادعاء مايستر بأن خطاب حقوق الإنسان السائد، وفيما هو يرسّخ شرورا مثل الهولوكوست والعبودية والأبارتهايد في الماضي، يطوّر تقنيات عدالة «انتقالية.» يشجع هذا الخطاب الأجيال المستقبلية على الانفصال عن الماضي من خلال خلق الفرضية الخاطئة بأن باب الماضي قد أصبح مغلقا وهو الأمر الذي يسمح للجناة بالتهرب من المسؤولية. لكن هذا الخطاب لا يفترض أن الشر ينتهي حيث تبتدئ العدالة، وإنما بأن هناك زمن يسبق العدالة والذي يشكّل الفترة التي يمكن خلالها وضع الشر في الماضي.

٥ ميلاني كلاين (Melanie Klein) (1882-1960) كاتبة ومحللة نفسية للأطفال. تنص نظريتها حول تطوّر الطفل النفسي بأن الأنا البدائي للطفل لا يستوعب الأشياء في العالم الخارجي ككل وإنما يعيش في عالم أحادي الأبعاد تكون فيه الأشياء إما جيدة وإما سيئة فقط. وبحسب هذا الأنا فإن الأم عندما تغذي الطفل عبارة عن «ثدي جيد» أما وعندما تخيّب الطفل فتتحول إلى «ثدي سيء» نواياه شريرة. للمزيد، راجعوا مثلا: https://www.encyclopedia.com/psychology/dictionaries-thesauruses-pictures-and-press-releases/good-bad-breast-object.

٦ انظروا ملاحظة ١.

٧ سيناجوغ وإكلسيا تمثيل فني ومعماري من القرون الوسطى في أوروبا يرمز إلى المسيحية واليهودية من خلال امرأتين الذي ظهر غالبا على هيئة تمثالين على جانبي بوابة الكنيسة. تقف إكلسيا (الكنيسة) فخورة ومنتصرة، تحمل الصليب ورأسها شامخة فوقها تاج. وفي المقابل تقف سيناجوغ (الكنيس) تحمل ألواح العهد مكسّرة وهي مطأطئة الرأس معصوبة العينين إشارة إلى عدم قدرة اليهود على رؤية «الحقيقة» في العهد الجديد.